

## القمة العربية: نظام عربي فاشل، وهوية دينية، والقمة قومية؟!

د. فارس بريزات  
[f.braizat@css-jordan.org](mailto:f.braizat@css-jordan.org)

انعقدت القمة العشرين في دمشق بعد طول جدل ومقاطعة تسعة رؤساء وملوك دول عربية لجلساتها. ولا ينتظر الرأي العام العربي الكثير من القمة. فهي تتعقد في ظروف سياسية عربية سيئة ليست بأفضل مما كانت عليه في عام 1990 عندما فشلت الجامعة العربية ومؤسسة القمة في إنهاء الاحتلال العراقي للكويت عربياً، وليس أفضل من ظروف عام 2003 الذي لم تتمكن فيه الجامعة والقمة من عمل شيء للحيلولة دون احتلال العراق. لا بل أن مجمل الظروف السياسية في العالم العربي من ناحية وجود تهديد مباشر هي أكثر حدة مما كانت عليه سابقاً. إذ لم تستطع القمم العربية المتتالية تخفيف معاناة الشعب الفلسطيني الرازح تحت نير الاحتلال الإسرائيلي، ولم تستطع إنقاذ السودان من معاناته، ولم تستطع وقف شلال الدم العراقي، ولم تتمكن من تطوير الخلافات اللبنانية وإيجاد حل لأزمة الرئاسة والحكم هناك، ولم تستطع جامعة الدول العربية إقناع إسرائيل بمبادرة السلام العربية التي تبنتها الدول العربية مجتمعة في محاولة لتحريك عملية السلام الميته.

أما في جانب التعاون العربي المشترك فلم تتمكن القمم العربية من تبني سياسات ذات أثر مباشر في زيادة التبادل التجاري العربي البيئي بشكل يعزز إقامة السوق العربية المشتركة التي تجاوز الحديث عنه 50 عاماً في أروقة الجامعة العربية، ولم تتمكن من إيجاد صيغة تضمن حرية تنقل الناس والبضائع ورؤوس الأموال التي هي عماد التكامل الاقتصادي العربي المنشود. تطول قائمة سرد المجالات التي فشلت الجامعة العربية وقممها المتتالية في إنجازها على الرغم من أنها تقع في صلب أهدافها. والسؤال هو لماذا فشلت الجامعة وقممها في تحقيق إنجازات يمكن أن تحسب لها؟ الإجابة على هذا السؤال متعددة ومتشعبة ولكن هناك عدة عوامل جوهرية يمكن إدراجها في محاولة فهم دور الجامعة:

1. تمثل الجامعة العربية مجموعة من الدول ذات المصالح المتناقضة. وليس من السهل إيجاد صيغ للعمل العربي المشترك بين هذه الدول في ظل غياب الحد الأدنى من التوافق بين عدد من الدول الأعضاء. لذلك تتحمل الدول الأعضاء المسؤولية حول فشل الجامعة وفشل النظام العربي الجامع. ولم تختفي ظواهر الحرب العربية-العربية الباردة عن جميع القمم التي عقدت حتى الآن.
2. عدم وجود تصور أممي مشترك وفعال للأمن القومي العربي. إذ تشترك العديد من الدول العربية في معاهدات حماية ودفاع مشترك مع دول غير عربية ولم تفلح الجامعة العربية في خلق قوة عربية تجتاز المعوقات السياسية التنافسية بين هذه الدول.
3. ضعف التبادل التجاري بين الدول العربية، إذ تفوق تجارة أي بلد عربي مع الدول الأخرى غير العربية حجم تجارته مع الدول العربية. بالطبع هناك قائمة أسباب مختلفة لهذا الحال المزري منها التشابه في الإنتاج وضعف تنافسية المنتج العربي بالجودة والسعر.
4. أدى ضعف أداء الجامعة ومؤسسة القمة إلى تقذم الهوية الدينية الإسلامية والهوية القطرية الوطنية على حساب الهوية القومية العربية. بالتأكيد هناك أسباب أخرى كثيرة ولكن لعل هذه هي الأسباب الأساسية.

والسؤال الآخر هو من له الحق في تقييم أداء الجامعة العربية ومؤسسة القمة؟

لنعترف من حيث البداية أن غياب المؤسسات الديمقراطية الفاعلة في الدول العربية يجعل من إمكانية تقييم أداء الحكومات في السياسة الخارجية أمراً صعباً من خلال القنوات التشريعية الديمقراطية. وفي ظل هذا العجز، يبقى أمامنا خيار الرأي العام الذي يتشكل في مجموعه من آراء المواطنين الذين يشكلون عماد قيام الدولة بمواطنتهم فيها ومن خلال قيامهم بالوظائف العامة والخاصة في تلك الدولة. فهم الأساس الذي تقوم عليه الدولة وبدونهم لا يمكن أن توجد دولة وأمنهم هو أمن الدولة والعكس صحيح. لذلك فإن ما يراه الرأي العام من تصور للأمن والخطر هو الأساس في تعامل الدولة مع هذه الموضوعات لأن الرأي العام في بلد ما يشمل آراء كل الناس والكل ممثل فيه. وتؤكد دراسات الرأي العام في المجتمعات التي بدأت فيها الدراسات ميكراً مثل الولايات المتحدة أن الرأي العام كان أكثر رشداً في مواقف من قادته في قضايا مفصلية في الحرب والسلام وفي أغلب الأحيان.

وفي هذا السياق، لنرى حالة الاستقطاب في الرأي العام العربي تجاه دور الجامعة العربية في تعزيز العمل العربي المشترك. في مقالات سابقة حول هذا الموضوع اتضح لنا أن الأغلبية من العرب ترى أن الجامعة العربية لم تكن ناجحة في تعزيز العمل العربي المشترك. سنركز الآن على حالة الاستقطاب في الرأي العام العربي للتعرف على مدى وعمق "المواقف المطلقة" تجاه دور الجامعة العربية. "الموقف المطلق" هو طرفي النقيض حول موضوع ما. والموقفين النقيضين هنا هما: نسبة المواطنين العرب الذين قالوا بأن جامعة الدول العربية كانت "ناجحة إلى درجة كبيرة" في تعزيز العمل العربي المشترك، ونسبة الذين قالوا بأن الجامعة "لم تكن ناجحة على الإطلاق" في تعزيز العمل العربي المشترك كما يوضح الشكل رقم 1.

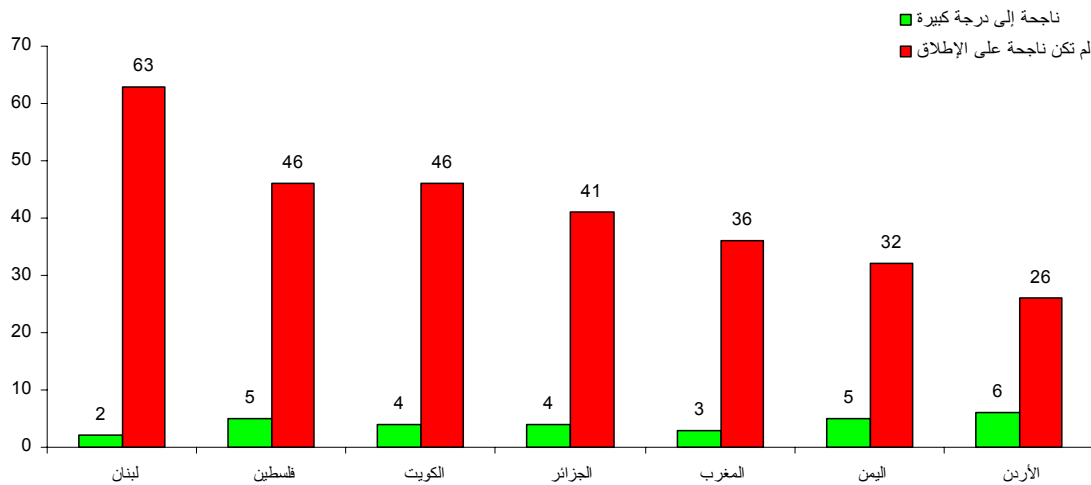
يُظهر الشكل رقم 1 أن جامعة الدول العربية تُعاني من أزمة ثقة مع الرأي العام العربي. المؤشر المعتمد هنا هو مؤشر عام حول أحد ركائز ومبررات وجود الجامعة - تعزيز العمل العربي المشترك. وعلى الرغم من اعتراف أمين عام الجامعة في خطابه في قمة دمشق بسوء الوضع العربي وتدهوره، إلا أن هذا لا يبرر فشل الجامعة أمام الرأي العام العربي. تشير بيانات مقياس الرأي العام العربي إلى أن نسبة الذين يرون بأن الجامعة لم تكن ناجحة في تعزيز العمل العربي المشترك هي 63% في لبنان، 46% في فلسطين، 46% في الكويت، و 41% في الجزائر، و 36% في المغرب، و 32% في المغرب، و 26% في الأردن. بالمقابل لم تتجاوز نسبة الذين قالوا بأن الجامعة كانت ناجحة إلى درجة كبيرة 6% في أحسن الأحوال. نلاحظ أن أكثر الناس اعتقاداً بعدم نجاح الجامعة في مجتمعات عربية عانت وتُعاني أزمات مثل لبنان وفلسطين والكويت. ومن المرجح أن تكون النسبة مرتفعة كذلك في العراق والسودان والصومال نظراً لمعاناة هذه الدول من أزمات مستفحلة. ولعل عدم نجاح الجامعة ومؤسسة القمة في التعامل مع هذه الأزمات بنجاحة يخلق تصور عام عند غير المتأثرين مباشرة بهذه الأزمات بفشل الجامعة.

الرأي العام العربي (بمن حضر! في هذا الاستطلاع) لا يُقيم أداء الجامعة العربية بإيجابية. وهذا يتطلب فتح موضوع الشرعية التي تتحرك في ظلها الجامعة العربية للنقاش العام بين العرب لعله يؤدي إلى حوار عربي بناء يعيد إحياء التفكير في دور أكثر فاعلية في تعزيز العمل العربي المشترك. ولعل إمكانية حدوث هذا الحوار تتطلب أيضاً أدوات جديدة مثل قبول الاختلاف في الرأي من موقع تعددي ديمقراطي يسمح بإثراء النقاش وليس الاتهام والتخوين. ولكن هل هذا ممكن في ظل الوضع العربي الراهن؟

على الرغم من وجود صعوبات كثيرة جداً تحول دون تطور هذا الحوار إلا أن إمكانية حدوثه واردة وعلينا أن نفكر في آليات له بغض النظر عن القائمة الطويلة من المعوقات. ربما يكون من المفيد أن يُعقد لقاء تشاوري لعدد من المنقذين العرب المهتمين بالشأن السياسي العربي وأبعاده الإستراتيجية للاتفاق على خطة عمل عربية تهدف لإعادة الثقة بالعمل العربي المشترك من خلال الضغط لتنفيذ سلسلة من القرارات القديمة التي ما زالت قابضة تحت الغبار والتي ستشعر المواطن العربي بفرق ما.

## الشكل رقم 1:

الاستقطاب في الرأي العام العربي حول تقييم أداء جامعة الدول العربية في تعزيز العمل العربي المشترك



الجانب الآخر هو مسألة الهوية (الشكل رقم 2). في العام العربي تتفوق الهوية الدينية الإسلامية والقطرية على الهوية العربية. على الرغم من تراجع التأكيد على الهوية الإسلامية في كل من الأردن والمغرب بنحو 10 درجات مئوية مقارنة مع عام 2001 ، إلا أن الهوية الإسلامية ما زالت هي الطاغية في كل من الجزائر والسعودية ومصر واليمن وفلسطين. ومن بين الدول العربية جاءت لبنان بأنه الاستثناء الوحيد حيث بلغت نسبة من قالوا "فوق كل شيء أنا لبناني 80% ولم تحصل الهوية الدينية فيه على أكثر من 6%. أما الكويت فقد تساوت فيه تقريباً الهويتان الدينية والقطرية 43% و 48% على التوالي.

أما الهوية العربية فلم تحظى بالكثير. فقد بلغت في مصر (أم العروبة تاريخياً) 1%، وفي السعودية 10%، وفي الأردن 8% عام 2001 و 9% عام 2006، وفي الجزائر 3% عام 2002 و 5% عام 2006، وفي المغرب 3% عام 2001 و 5% عام 2006، وفي اليمن 5%، وفي لبنان 4%، وفي الكويت 3%، وفي فلسطين 4%.

من المنطقي القول أنه لا يوجد تناقض بين الهويتين العربية والإسلامية ومن المنطقي القول بأنهما مكملتان لبعضهما البعض. ولكن السؤال الذي يحتاج لإجابة هو لماذا تتفوق الهوية القومية في البلدان الإسلامية غير العربية (اندونيسيا، والباكستان، وبنغلاديش، وتراجع الهوية العربية في البلدان العربية الإسلامية؟ هل هذه بداية تراجع منتظم للهوية العربية التي تقوم عليها جامعة الدول العربية ومؤسسة القمة؟ ربما يكون عدم إهتمام بعض القادة العرب بحضور قمة دمشق مؤشراً على تفوق المصالح الفردية للدول العربية على المصالح العامة لدول الجامعة، وإذا كان هذا الافتراض سليم، فإن إعادة الحياة للهوية العربية يتطلب الترفع فوق الخلافات البيئية لتظهر الجامعة العربية ومؤسسة القمة بأنها أولوية على الرغم من الخلافات والاختلافات البيئية.

## الشكل رقم 2:

